تعقيبٌ على نقد كتاب «الآمل والمأمول» المنسوب للجاحظ

للدكتور ابراهيم السامرائي

للأستاذ محمد أحمد الدالي

أتيح لي أن أطلع على مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (العدد المزدوج ٢٣-٢٤، السنة السابعة، كانون الثاني - حزيران ١٩٨٤م)، فوجدت فيها نقداً لكتاب «الآمل والمأمول» المنسوب للجاحظ الذي حققه الدكتور رمضان ششن، وطبع ببيروت مرتين عام ١٩٧٢ و١٩٨٣م.

وكنت طالعت الكتاب، وعرفت أن الكتاب ليس للجاحظ غير شك، وإنما هو لمحمد بن سهل بن المرزبان البغدادي الكرخي المتوفى بعد سنة ٣٢٢هـ، والملقب بـ«الباحث» أو «الباحث عن مُعْتَاص العلم». وعنّت لي جملة تعليقات يسيرة عليه، فكتبت مقالة ارسلتها الى مجلة الفيصل بتاريخ ١٩٨٤/٧/١٧، وعنوانها «كتاب الآمل والمأمول - تحقيق نسبته ونظرات فيه» لمّا تنشر.

فقرأت ما كتبه الدكتور الفاضل ابراهيم السامرائي، فوجدته شاركني في بعض ما اخذته على المحقق، وقد أصاب في بعض ما قاله، ووهم في بعض، ولم يوفق الى معرفة صاحب الكتاب.

ورأيت أن أقف عند بعض ما قاله الدكتور الفاضل، وهذا بعض ما اتّفق لي أعرضه على القراء ليروا فيه رأيهم:

١ ـ وقف الدكتور الفاضل عند قول صاحب الكتاب (الأمل والمأمول ٩، المجلة ١٣٩): «. . . والمجد في التماس ما هو به أعذر من التجافي عما إن فاته قعد به عن مرتبة أهل الفضل ودرجة ذوي المروءة»، وعلق عليه بقوله: «أقول: والوجه أن يقال: والمجد في التماس. . . عما قعد به عن مرتبة أهل الفضل ودرجة ذوي المروءة إن فاته. . .» ثم احتج لما ذهب الى أنه الوجه بقوله: «إن تقديم الفعل «قعد» وهو جواب الشرط في كلام المؤلف متطلب، لأن التقديم يجعل هذا الفعل صدراً لجملة الصلة للموصول «ما». وشرط جملة الصلة أن تكون خبراً لا إنشاء. وهذا يعني أننا لو أبقينا على نص المؤلف لكانت جملة الصلة إنشاء وهي جملة شرطية (إن فاته قعد) وهذا ممتنع وقد ورد هذا كله في المظان النحوية».

كذا قال الدكتور، ولعله اتّكأ على ما وعته الذاكرة ولم يعد إلى المظان النحوية.

فقول صاحب الكتاب «. . عما إن فاته قعد به. . .» صواب محض، وهو كقول المجنون:

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي وأنت التي إن شئت أنعمت باليا

والجملة التي تكون شرطاً وجزاء (الشرطية) تقع صفة وصلة للموصول. قال ابن يعيش (شرح المفصل ٣/٥٢): «وقد تقع الجمل صفات للنكرات، وتلك الجمل هي الخبرية المحتملة للصدق والكذب، وهي التي تكون أخباراً للمبتدأ وصلات للموصولات، وهي اربعة اضرب:

الاول: أن تكون جملة مركبة من فعل وفاعل . . . . . .

والثالث: ان تكون الجملة الصفة جملة من شرط وجزاء، وذلك نحو:

مررت برجل إن تكرمه يكرمك، فقولك «ان تكرمه يكرمك» في موضع الصفة لرجل. . . ».

وقال (شرح المفصل ٣/١٥١): «. . . ومثال وَصْلِك بالشروط والجزاء قولك: جاءني الذي إن تأته يأتك عمرو، فقولك «إن تأته يأتك عمرو» صلة، والعائد الهاء في تأته. . . » وذكر ان القائل بالخيار في إلحاق العائد، فإن شاء اتى به في الجملة الأولى نحو المثال الذي ذكره، وان شاء اتى به في لجملة الثانية، نحو: جاءني الذي ان تكرم زيداً يشكرك، وان شاء أتى بالضمير فيهما، وهو «أحسن شيء، نحو قولك: جاءني الذي إن تَزُرْه يحسنْ إليك. . . ».

فالجملة الشرطية تكون خبرية وتكون انشائية، وذلك باعتبار جوابها، فإذا كان الجواب خبراً كانت خبرية ووقعت صفةً وصلة للموصول، وإذا كان الجواب إنشاءً كانت إنشائية ولم تقع صفة ولا صلة للموصول.

وانظر همع الهوامع ١/٨٦ (١/٢٩٦، ط الكويت)، وحاشية الخضري على ابن عقيل ١/٧٧، وحاشية الصبان على الأشموني ١/١٦٣، والنحو الوافي ١/٣٧٤ ـ ٣٧٥، وانظر المقتضب ٣/١٣٠.

٢ ـ ووقف عند قول الشاعر (الأمل والمأمول ٤٣، المجلة ١٤٨).

لئن أخطأتُ في مَدْحِـ ـكَ ما أَخطأتَ في منعي
فقد احللت حاجاتي بوادٍ غير ذي زرعِ

وقال: «أقول: الصواب: لقد أحللت حاجاتي. . . . . .

وذلك لأن ورود «لئن» في البيت الأول يؤذن أن يكون الجواب مقترناً باللام التي هي لام القسم [كذا] وهذا كقوله تعالى: لئن شكرتم لأزيدنكم».

كذا قال الدكتور؛ والصواب كما جاء «فقد» والفاء فيه تعليلية استئنافية. اما جواب القسم فهو قوله «ما اخطأتَ في منعي» وهو كلام واضح لا يحتاج الى تقدير.

٣ ـ ووقف عند قول المؤلف (الآمل والمأمول ٤٨، المجلة ١٥٠): «. . . ثمّ انه أثرى فاستفاد نيفاً وتسعين ببراً للنخل بالمدينة» وقال: «اقول لا وجه لكلمة «ببر» في هذا النص، والذي أراه أن يكون الأصل «جريباً» والجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة يغرس نخلاً، وهو معروف، وما زال الجريب معروفاً لدى أهل النخل. وليس من مكان للببر، وهو من وحوش السباع».

كذا قال الدكتور، وليس لنا ان نغير النصوص بما نراه. وعندي أن «ببراً» محرفة عن «بِئْراً».

وبئر النخل: حفيرة تحفر حول الفسيلة لتغرس فيها، واسم البئر «الفَقِيرُ». قال أبو عبيد (المخصص ١١/١٠٤): «فإذا قلعت الوديّةُ من أمّها بِكَرَبِها قيل ودِيَّة مُنْعَلَةٌ، فإذا حفر لها بِئْراً وغرسها ثم كبس حولها بتَرْنُوق المسيل والدِّمْن ـ يعني بالترنوق السماد والطين ـ فقد فَقَّرَ لها، واسم البِئْر: الفَقِيرُ. وجمعها فُقُرٌ». وانظر المخصص ١٠/٣٤، واللسان (فقر).

٤ ـ دفع الدكتور نسبة الكتاب الى الجاحظ بقوله (ص١٣٧ من المجلة): «. . . ففي الكتاب من الرجال ممن [كذا] عاشوا بعد الجاحظ، وهذا دليل قاطع على ان الكتاب ليس للجاحظ كما سنشير الى ذلك. . .».

وقـد أشـار الى ذلك في تعليقه على قول محمد بن حازم الباهلي (الآمل والمأمول ١٢ ـ ١٣، المجلة ١٤١):

ما كان مال يفـوت دون غد فليس بي حاجـة الـى احـدِ

قال: «وقـد علق المحقق على محمد بن حازم الباهلي، فأثبت موجزاً بترجمته في الحاشية جاء فيها انه توفي سنة ٣١٥ هجرية» ثم قال الدكتور السـامـرائي: «اقـول: وتـاريخ وفاة الباهلي هذا دليل كاف على ان الآمل والمأمول ليس من كتب الجاحظ، وعلى هذا فالقول انه منسوب للجاحظ ليس بشيء».

أقول: أما ان الكتاب ليس للجاحظ فهو حق صحيح، وقد سلف اسم صاحب الكتاب في اول هذه الكلمة.

وأما ما استدل به الدكتور ليقطع بأن الكتاب ليس للجاحظ فخطأ، لانه بناه على ان وفاة محمد بن حازم الباهلي كانت سنة ٣١٥هـ، وقد تابع في ذلك ما ورد في تعليق محقق الكتاب من غير أن يتثبت منه. واظن ما وقع في حاشية محقق الكتـاب خطأ مطبعياً، وصـوابـه «٢١٥هـ»، وكان ينبغي للدكتور الفاضل السامرائي ان يتحقق منه قبل ان يبني عليه ما بناه.

وليس بين أيدينـا ما يعين على تحديد وفاة محمد بن حازم الباهلي تحديداً دقيقاً. وقد استظهر الزركلي رحمه الله (الاعلام ٦/٧٥) بما انتهى الينا من أخباره وأشعاره أن وفاته كانت نحو سنة ٢١٥هـ، ولم يقل إن شاء الله إلا صواباً أو قريباً منه.

وقد مدح ابن حازم الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) ولم يمدح من الخلفاء غيره، واتصل بابراهيم بن المهدي (ت ٢٢٤هـ)، والحسن بن سهل وزير المأمون ووالد زوجه بوران (ت ٤٣٦هـ)، وله مع ابراهيم بن المهدي خبر، وقد شاب وتجاوز الخمسين من عمره.

ثم إن الجاحظ انشد له أبياتاً في كتاب الحجاب (رسائل الجاحظ ٢/٦١) وفي كتاب البغال (رسائل الجاحظ ٢/٢٥٥ ـ ٢٥٦، ٣٠٣).

انظر ترجمة ابن حازم في معجم الشعراء ٣٧١، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٣١٨-٣١٩، والمحمدون من الشعراء ٣١٢-٣١٣، والورقة ١١٧-١١٩، والأغاني ١٤/٩٢-١١١.

وجمع شعره محمد خير البقاعي، ونشرته دار قتيبة بدمشق سنة ١٩٨٢م.

٥ ـ وعلّق الدكتور الفاضل على قول المؤلف (الأمل والمأمول ٣٩، المجلة ١٤٧): «انشدني هشام بم محمد للعتابي . . .» بقوله:

«اقول لا بد أن يكون هشام بن محمد ابي النضر بن السائب بن بشر الكلبي المؤرخ النسابة والعالم بأخبار العرب وأيامها. انظر ارشاد الأريب ٧/٢٥٠-٢٥٤».

كذا قال، ولِمَ يكون حتماً أن يكون «هشام بن محمد» هو ابن السائب الكلبي؟ وكيف يورد المؤلف أبيات ابن حازم ـ وهو المتوفى سنة ٣١٥هـ كما ذكر الدكتور نقلاً عن محقق الكتاب، وبنى عليه ما بناه ـ ثم يروي عن هشام بن محمد ابي النضر بن السائب بن بشر الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ؟!

فليس هشام بن محمد هو ابن السائب الكلبي بل هو رجل آخر لعل البحث يكشف عنه.

وبعد، فهذا ما اتفق لي من القول، وأرجو أن أكون أصبت في بعضه، وأثني على الجهود التي يبذلها الدكتور الفاضل ابراهيم السامرائي في خدمة التراث العربي. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

محمد أحمد الدالي

(حماه ـ سورية)